الإمام أبو الحسن الأشعري (ت: ٣٢٤هـ)
رائد المذهب السُّني الأصيل والذائد عنه بالحجة والدليل
دراسة في ضوء كتاب الإبانة عن أصول الديانة

الدكتور رشيد كُهُوس

أستاذ بكلية أصول الدين بتطوان–التابعة لجامعة القرويين سابقا ولجامعة عبد المالك السعدي حاليا/المغرب

رئيس فريق البحث في السنن الإلهية

بسم الله الرحمن الرحيم

تقديم

يعتبر الإمام أبو الحسن الأشعري رائد الفكر العقدي السني الأصيل، ومؤسس المذهب الأشعري الذي تبناه كبار العلماء في القديم والحديث، ومذهبا رسميا لكثير من الدول المسلمة، فقد أسهم بشكل فعال في تحصين عقيدة المسلمين من انتحال المبطلين وتأويل الجاهلين وشبهات المغرضين... وقد أئمته العظام بجهود كبيرة في ترسيخ العقيدة الصحيحة في المجتمعات المسلمة تأليفا وتدريسا وذودا عن حماها.

لقد ظهر الإمام الأشعري في وقت أينعت فيه رؤوس الفرق المبتدعة، "فجحرهم في أقماع السمسم، وكان مؤتما بالكتاب والسنة وإجماع الأمة، متمسكا بالدلائل العقلية والشواهد السمعية، وإذا تأملت كتب الحديث المتفق على صحتها كموطأ مالك رحمه الله وصحيحي البخاري ومسلم وجدته ناطقا عنهما وناقلا منهما لم يأت برأي ابتدعه ولا مذهب اخترعه، وسبيله في بسط القول في مسائل الأصول كسبيل مالك رحمه الله وغيره من الفقهاء فيما بسطوا القول فيه من مسائل الفروع"(١).

فمن هو أبو الحسن الأشعري؟ وما هي آثاره العلمية؟ وما موقف العلماء منه؟ وما هو منهجه العقدي من خلال كتابه الإبانة؟ وكيف تعامل مع المخالفين له في العقيدة؟

(١) عيون المناظرات، للأبي علي عمر السكوني، ص٢٢٥.

المبحث الأول

ترجمة موجزة للإمام أبي الحسن الأشعري

المطلب الأول: مولده ونشأته ووفاته

أبو الحسن الأشعري هو: علي بن إسماعيل بن إسحاق بن سالم بن إسماعيل بن عبد الله بن موسى ابن أبي بردة بن أبي موسى الأشعري ﷺ، فهو من نسل ذلك الصحابي الجليل أبي موسى الأشعري ﷺ.

اختلف المؤرخون في سنة مولده؛ فمنهم من قال إنه ولد سنة ٢٦٠هـ، ومنهم من قال إنها سنة ٢٦٦هـ، ومنهم من قال إنها ٢٧٠ هـ. والذي عليه الجمهور أنه ولد سنة ٢٦٠ هـ .

كما اختلفوا في وفاته؛ فمنهم من قال إنه توفي سنة ٣٢٤هـ، ومنهم من قال ٣٣٠ هـ وهذا الذي عليه أكثر المؤرخين كما رجحه ابن عساكر.

ولد بالبصرة وانتقل منها إلي بغداد بعد رجوعه عن الاعتزال، فهو بصري من حيث المولد بغدادي من حيث النشأة(١).

أخذ الإمام أبو الحسن الأشعري –رحمه الله– من كثير من علماء المسلمين منهم المعتزلة ومنهم علماء السنة بعد تخليه عن مذهب الاعتزال ورجوعه إلى مذهب أهل السنة.

وتتلمذ على يديه جم غفير من العلماء وطلاب العلم.

---

(١) ترجم له العديد من المؤرخين منهم: النديم في الفهرست (٦٤٨/١)، والبغدادي في تاريخه، والسمعاني في الأنساب، وابن الجوزي في المنتظم، وابن خلكان في وفيات الأعيان، وابن أبي الوفاء في الجواهر المضية في طبقات الحنفية، والذهبي في العبر في خبر من غبر وسير أعلام النبلاء، والسبكي في طبقات الشافعية الكبرى، وابن كثير في البداية والنهاية، والمقريزي في الخطط، وابن عساكر في تبيين كذب المفتري فيما نسب إلى الإمام أبي الحسن الأشعري، والزركلي في الأعلام وغيرهم.

المطلب الثاني: آثاره العلمية

كان الإمام الأشعري صاحب قلمٍ سيال يكتب في جميع الفنون، ويؤلف في جميع العلوم، مما يدل علي ذكائه وفطنته، ومن ألقى نظرة على الكتب التي تركها الأشعري تراثاً للناس علم من خلال ذلك عن القدرة العقلية التي كان يتمتع بها، فقد كتب في الفرق التي خرجت وظهرت وانتشرت في أرجاء المعمورة، وذكر عقائدهم، ومذاهبهم وأفكارهم. كما رد عليها بأسلوب علمي رصين يحمل في طياته الدلائل الساطعة والبراهين الواضحة على صحة ما يقول، ومن هذه الكتب ما وصل إلينا، ومنها ما لم يصل وهو أكثرها، ونذكر منها:

١-مقالات الإسلاميين واختلاف المصلين.

٢-اللمع في الرد على أهل الزيغ والبدع.

٣-رسالته إلى أهل الثغر.

٤-الإبانة عن أصول الديانة (هو أشهر كتب الأشعري على الإطلاق).

٥-رسالة الخوض في علم الكلام.

٦-الرؤية بالأبصار.

٧-كتاب في تفسير القرآن.

٨-رسالة في الإيمان.

٩- الفصول في الرد على الملحدين.

١٠-النقض على الجبَّائي.

١١-المنتخل في المسائل المنثورات البصريات.

١٢- المختصر في التوحيد والقدر.

١٣- الفصول في الرد على الملحدين والخارجين عن الملة.

١٤- العمد في الرؤية.

١٥-دلائل النبوة.

١٦-الإمامة.

١٧-كتاب في الاجتهاد في الأحكام.

١٨-كتاب في الرد على المجسمة.

إلى غير ذلك من مؤلفاته النفيسة، وهناك من يصل بها إلى مائة مصنف، ومنهم من يبلغ بها حوالي ثلاث مائة وخمسين مصنفاً[١].

أورد الإمام محمد بن الحسن بن فُورَك قائمة مهمة لمصنَّفات الشيخ أبى الحسن الأشعري نقلا عن الشيخ أبى الحسن نفسه، تشمل هذه ما صنفه إلى سنة (٣٢٠هـ) حيث حكاها الشيخ أبو الحسن في كتابه الذي سماه "العمد"، ومن الواضح أن هذا التاريخ الذي حدده ابن فورك وابن عساكر هو تاريخ تأليف رسالة العمد هذه، قال الحافظ ابن عساكر: "فأما أسامي كتب الشيخ أبى الحسن ﷺ مما صنفه إلى سنة عشرين وثلاثمائة فإنه ذكر في كتابه الذي سماه العمد في الرؤية أسامي أكثر كتبه"[٢]، ثم استدركوا على ما ذكره الشيخ ما ألفه بعد هذا التاريخ (٣٢٠ه) إلى سنة وفاته رحمه الله تعالى(٣٢٤ هـ).

فيصير ما ذكره في العمد هو ما ألفه من سنة (٣٠٠هـ) سنة رجوعه عن الاعتزال- إلى وقت تأليفه لرسالة العمد سنة (٣٢٠هـ)، وتشمل هذه القائمة سبعين كتابا ورسالة.

ثم ذيل ابن فورك على قائمة الشيخ بقائمة ثانية: ما ألفه بعد رسالة العمد، ويشتمل هذا القسم الذي ذكره ابن فورك على رسائله الأخرى حتى وفاته سنة (٣٢٤هـ) على الراجح، فبلغ ما ذكره ابن فورك ستة وعشرين مصنَّفا آخر.

ثم يأتي بعد ذلك ما ذيل به ابن عساكر على القائمتين السابقتين حيث ذكر أنه وقع له أشياء لم يذكرها في تسمية تواليفه، ويمكن اعتبار ذلك الذيل قائمة ثالثة، وإن جاءت قصيرة لم يتجاوز عددها ثلاثة مصنَّفات، ويلاحظ عليها أنها متداخلة زمنيا

(١) الأعلام للزركلي، ٢٦٣/٤. سير أعلام النبلاء، ٨٧/١٥.

(٢) تبيين كذب المفترى، ص١٢٨.

مع القائمتين السابقتين، ولم يقدم لنا ابن عساكر تصنيفا تاريخيا لها كما فعل ابن فورك(١).

واشتملت هذه القوائم الثلاث لمؤلفات الأشعرى تسعة وتسعين مصنَّفا في محاور شتى من علم الكلام: محور النقوض: واشتمل على تسعة عشر مصنفا، ومحور الجواب على السؤالات واشتمل على أربعة عشر مصنفا، ومحور الرد على الملحدين والخارجين عن الملة كالفلاسفة والطبائعيين والدهريين وقد اشتمل على إحدى عشر مصنفا، ومحور رسائل متخصصة في بعض مسائل علم الكلام، واشتمل على إحدى عشر مصنفا، ومحور أصول الفقه، وعلم الفقه، واشتمل على تسعة مصنفات. ومحور الرد على أهل البدع من المسلمين، واشتمل على ثمانية مصنفات، ومحور الجوامع واشتمل على ستة مصنفات، ومحور أصول علم الكلام ومقدماته العامة واشتمل على خمسة مصنفات، ومحور علم الجدل والمنطق واشتمل على أربعة مصنفات، ومحور المداخل، واشتمل على أربعة مصنفات، ومحور المقالات واشتمل على ثلاثة مصنفات، ومحور الجدل مع أهل الملل الأخرى واشتمل على مصنفين، ومحور المجالس واشتمل على مصنفين، ومحور المبتدئين في مصنف واحد، ومحور كتب غير مصنَّفة واشتمل على مصنفين.

وختاما فإن مائة من المصنَّفات المتخصصة في عامتها في علم واحد وأدواته وأصوله وفروعه ومسائله كافية لوحدها لوضع أسس واضحة ودعائم قوية لمذهب عقدي شامل ومتكامل، ويصير معها الحكم على الأشعري من خلال بعض كتبه القليلة التي وصلتنا إجحاف بحقه، والزعم بنتائج دون الوقوف على مقدمات كافية لإنتاجها، وإذا كان التحليل الخارجي فحسب لقائمة مصنَّفاته أضاء لنا مساحة لم تكن واضحة في الحسبان من منهاج التصنيف الأشعري، فما بالنا لو وقفنا –كما وقف المتقدمون– على تلك المصنَّفات وأتيحت لنا فرصة بحثها ودراستها، فإننا لا شك

(١) انظر: تبيين كذب المفترى، ص ١٢٨ وما بعدها. ومقالات الشيخ أبي الحسن الأشعري إمام أهل السنة، لابن فورك، بتحقيق: أحمد عبد الرحيم السايح. ومقدمة تحقيق الإبانة، لفوقية حسين محمود، ص٤١ وما بعدها.

سنسلم معهم بأن للشيخ مذهب كلامي متكامل عقلي ونقلى أثبت من خلاله مذهب أهل السنة والجماعة، ونافح عنه ضد خصومه[١]..

المطلب الثالث: مراحل حياته

المرحلة الأولى: تجمع المصادر كلها على أنه كان في طوره الأول هذا معتزلياً، تلقى أصول مذهب الاعتزال عن زوج أمه الجبائي، وظل على ذلك أربعين سنة، ومن ذلك ما ذكره أول المترجمين للأشعري، وهو النديم في الفهرست: وكان أولا معتزليا ثم تاب من القول بالعدل وخلق القرآن في المسجد الجامع بالبصرة يوم الجمعة رقى كرسيا ونادى بأعلى صوته. من عرفني فقد عرفني؟ ومن لم يعرفني فأنا أعرفه بنفسي؛ أنا فلان بن فلان كنت أقول بخلق القرآن وأن الله لا يرى بالأبصار وأن أفعال الشر أنا أفعلها، وأنا تائب مقلع معتقد للرد على المعتزلة، فخرج بفضائحهم ومعايبهم"[٢].

وكذلك ابن عساكر يقول مثل ذلك، وغيره ممن ترجم للأشعري.

المرحلة الثانية: بعد خروج الأشعري عن الاعتزال سلك مسلك عبد الله بن سعيد بن كُلَّاب البصري[٣] وبدأ يرد على المعتزلة معتمداً على القوانين التي وضعها ابن كلاب.

وهذا الطور يمثله بوضوح كتابه "اللمع" الذي بدأ فيه الأشعري بإثبات بعض الصفات التي تنكرها المعتزلة، ودخل معهم في جدال يشوبه الهجوم الحاد على ما يعتقدونه.

---

(١) انظر: منهج التصنيف الكلامى عند الشيخ أبى الحسن الأشعرى، لشيخنا الفاضل عصام أنس الزفتاوي الأشعري النقشبندي، المنشور بموقعه.

(٢) انظر: الفهرست للنديم بتحقيق: أيمن فؤاد سيد، ٦٤٨/١.

(٣) الكلابية من أقرب المذاهب إلى أهل السنة، لكنها لم تسلم من انتقادات وردود من علماء أهل السنة.

المرحلة الثالثة: رجوعه إلى مذهب السلف[١]، كما يعبر عن ذلك كتابه: "الإبانة عن أصول الديانة"، و"رسالة إلى أهل الثغر"[٢].

المطلب الرابع: ثناء أهل العلم عليه

قال البغدادي: "أبو الحسن الأشعري المتكلم صاحب التصانيف في الرد على الملحدة، وغيرهم من المعتزلة والرافضة والجَهْمية والخوارج وسائر أصناف المبتدعة"[٣]. وقال الذهبي: "العلامة إمام المتكلمين، أبو الحسن ... وكان عجباً في الذكاء وقوة الفهم، ولما برع في معرفة الاعتزال كرهه، وتبرأ منه، وصعد إلى الناس وتاب إلى الله تعالى منه ثم أخذ يرد على المعتزلة ويهتك عوارهم"[٤].

وقال الفقيه أبو بكر الصيرفي:"كانت المعتزلة قد رفعوا رءوسهم، حتى نشأ الأشعري فحجزهم في أقماع السمسم"[٥]. وعن أبي بكر بن الطيب الباقلاني قال: "أفضل أحوالي أن أفهم كلام الأشعري"[٦]. وقال عبد الحي بن أحمد ابن العماد الحنبلي: "ومما بيض به وجوه أهل السنة النبوية، وسود به رايات أهل الاعتزال والجهمية، فأبان به وجه الحق الأبلج، ولصدور أهل الإيمان والعرفان أثلج، مناظرته مع شيخه الجبائي، التي بها قصم ظهر كل مبتدع مرائي"[٧].

وقال الإمام تاج الدين عبد الوهاب السُّبكي: "واعلم أن أبا الحسن الأشعري لم يبدع رأيًا ولم يُنشئ مذهبًا؛ وإنما هو مقرر لمذاهب السلف، مناضل عما كانت عليه صحابة رسول الله ﷺ، فالانتساب إليه إنما هو باعتبار أنه عقد على طريق السلف

---

(١) السلف: هم صدر هذه الأمة من الصحابة والتابعين، وأئمة الهدى في القرون الثلاثة المفضلة.

(٢) انظر: موقف ابن تيمية من الأشاعرة، عبد الرحمن المحمود، ص ٣٦١ وما بعدها.

(٣) تبيين كذب المفتري، ابن عساكر، ص٣٥.

(٤) سير أعلام النبلاء، ١٥/٨٥-٨٦.

(٥) سير أعلام النبلاء، ١٥/٨٦. تبين كذب المفتري، ص٩٤. وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، أبو العباس شمس الدين أحمد بن محمد بن أبي بكر بن خلكان، ٣/٢٨٦.

(٦) سير أعلام النبلاء، ١٥/٨٦.

(٧)شذرات الذهب في أخبار من ذهب، ٢/ ٣٠٣- ٣٠٥.

نطاقا وتمسك به، وأقام الحجج والبراهين عليه، فصار المقتدي به في ذلك السالك سبيله في الدلائل؛ يسمى أشعريًّا"(١).

وقال أبو عبد الله محمد بن موسى الكلاعي المايرقي المالكي: "ولم يكن أبو الحسن أول متكلم بلسان أهل السنة؛ إنما جرى على سنن غيره، وعلى نصرة مذهب معروف فزاد المذهب حجة وبيانًا، ولم يبتدع مقالة اخترعها ولا مذهبًا به، ألا ترى أن مذهب أهل المدينة ينسب إلى مالك، ومن كان على مذهب أهل المدينة يقال له مالكي، ومالك إنما جرى على سنن من كان قبله وكان كثير الاتباع لهم، إلا أنه لما زاد المذهب بيانًا وبسطًا عزي إليه، كذلك أبو الحسن الأشعري لا فرق، ليس له في مذهب السلف أكثر من بسطه وشرحه وما ألفه في نصرته"(٢).

ويقول أبو نصر السبكي: "وهؤلاء الحنفية، والشافعية، والمالكية، وفضلاء الحنابلة في العقائد يد واحدة كلهم على رأي أهل السنة والجـــماعة يدينون لله تعالى بطريق شيخ السنة أبي الحسن الأشعري رحمه الله، (...) وبالجملة عقيدة الأشعري هي ما تضمنته عقيدة أبي جعفر الطحاوي التي تلقاها علماء المذاهب بالقبول ورضوها عقيدة"(٣).

وسئل الإمام ابن رشد الجد الفقيه المالكي-رحمه الله-: "ما يقول الفقيه القاضي الأجل، أبو الوليد في الشيخ أبي الحسن الأشعري وأبي إسحق الإِسْفَرَاييِنِيِّ وأبي بكر الباقلاني وأبي بكر بن فورك وأبي المعالي... ونظرائهم ممن ينتحل علم الكلام ويتكلم في أصول الديانات ويصنف للرد على أهل الأهواء؟ وما يقول في قوم يسبونهم وينتقصونهم، ويسبون كل من ينتمي إلى علم الأشعرية، ويكفرونهم ويتبرءون منهم وينحرفون بالولاية عنهم، ويعتقدون أنهم على ضلالة، وخائضون في جهالة، فماذا يقال لهم ويصنع بهم ويعتقد فيهم؟ أيتركون على أهوائهم؟ أم يكف عن غلوائهم؟

(١) طبقات الشافعية الكبرى، ٣٦٧/٣.

(٢) تبيين كذب المفتري، ص١١٨.

(٣) معيد النعم ومبيد النقم، ص ٦٢.

فأجاب: تصفحت عصمنا الله وإياك سؤالك هذا ووقفت عليه. وهؤلاء الذين سميت من العلماء أئمة خير وهدى وممن يجب بهم الاقتداء؛ لأنهم قاموا بنصر الشريعة، وأبطلوا شبه أهل الزيغ والضلالات، وأوضحوا المشكلات، وبينوا ما يجب أن يدان به من المعتقدات؛ فهم بمعرفتهم بأصول الديانات العلماءُ على الحقيقة، لعلمهم بالله عز وجل وما يجب له وما يجوز عليه وما ينتفي عنه؛ إذ لا تُعلم الفروع إلا بعد معرفة الأصول.

فمن الواجب أن يُعترف بفضائلهم ويقر لهم بسوابقهم، فهم الذين عني رسول الله ﷺ بقوله: «يحمل هذا العلم من كل خلف عدوله ينفون عنه تحريف الغالين وانتحال المبطلين وتأويل الجاهلين». فلا يعتقد أنهم على ضلالة وجهالة إلا غبي جاهل، أو مبتدع زائغ عن الحق مائل.

ولا يسبهم وينسب إليهم خلاف ما هم عليه إلا فاسق، وقد قال الله عز وجل: ﴿ وَٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ بِغَيْرِ مَا ٱكْتَسَبُوا۟ فَقَدِ ٱحْتَمَلُوا۟ بُهْتَٰنًا وَإِثْمًا مُّبِينًا ﴾ [الأحزاب :٥٨].

فيجب أن يبصر الجاهل منهم، ويؤدب الفاسق، ويستتاب المبتدع الزائغ عن الحق إذا كان مستسهلا ببدعة، فإن تاب وإلا ضرب أبدا حتى يتوب كما فعل عمر بن الخطاب ﷺ بصبيغ المتهم في اعتقاده من ضربه إياه حتى قال يا أمير المؤمنين: إن كنت تريد دوائي فقد بلغت مني موضع الداء، وإن كنت تريد قتلي فأجهز علي، فخلى سبيله، والله أسأل العصمة والتوفيق برحمته. قاله محمد بن رشد"(١).

وقد أفرد الحافظ ابن عساكر مؤلفاً خاصاً بالأشعري، سماه: "تبيين كذب المفتري فيما نسب إلى الإمام أبي الحسن الأشعري"، دافع فيه عن الإمام الأشعري ورد على من عاداه وظلمه، ولمز نسبه، وذكر روايات العلماء والأئمة في مدحه والثناء عليه، وأبرز مكانته العلمية كما ذكر فيه بعضاً من شيوخه الذين تلقى على أيديهم العلم.كما ذكر تلاميذه، وكذلك فعل الإمام السبكي في طبقاته.

(١) فتاوى ابن رشد، محمد بن أحمد بن أحمد بن رشد القرطبي المالكي أبو الوليد، تحقيق: المختار بن الطاهر التليلي، ٨٠٢/٢.

قال الحافظ ابن عساكر –رحمه الله–: "اعلم يا أخي وفقني الله وإياك لمرضاته، وجعلنا ممن يخشاه ويتقيه حق تقاته، أن لحوم العلماء مسمومة، وعادة الله في هتك أستار منتقصيهم معلومة، وأن من أطلق لسانه في العلماء بالثلب بلاه الله قبل موته بموت القلب ﴿ فَلْيَحْذَرِ ٱلَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِۦٓ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ [النور: ٦٣]"(١).

ولذلك، فإن المسيء إلى العلماء العاملين والطاعن عليهم بغياً وعدواً قد ركب متن الشطط، ووقع في أقبح الغلط؛ لأنه بطعنه في العلماء قد طعن في الدين فهم حملة العلم وورثته.. وهم أئمة الأنام الذين حفظوا على الأمة معاقد الدين ومعاقله، وحموا من التغيير والتكدير موارده ومناهله، الذين قال فيهم الفاروق عمر بن الخطاب ﷺ: «الحمد لله الذي امتن على العباد بأن يجعل في كل زمان فترة من الرسل بقايا من أهل العلم، يدعون من ضل إلى الهدى، ويصبرون منهم على الأذى، ويحيون بكتاب الله أهل العمى، كم من قتيل لإبليس قد أحيوه، وضال تائه قد هدوه، بذلوا دماءهم وأموالهم دون هلكة العباد، فما أحسن أثرهم على الناس، وأقبح أثر الناس عليهم»(٢).

لكن تغير الحال في زماننا، قلَّ العلم، وكثر اللغط، وتكلم في الدين من لا يعلم ولا يفقه، وتحولت أندية الناس ومجالسهم إلى مجالس الغيبة والنميمة وأكل اللحوم المسمومة، وانسلخوا من أخلاق السلف كما تنسلخ الحية من جلدها، لا يراعون لشيخ حرمة، ولا للأمة إلاًّ ولا ذمة... وليس هذا من أخلاق من سبقنا بالإيمان، ولا من سمتهم؛ فأخلاقهم الحياء، وعفاف اللسان، واحترام الكبير، ورحمة الصغير، والتأول الحسن، وترجيح العذر، وجمال اللفظ، والاستغفار للذين سبقونا بالإيمان.

(١) تبيين كذب المفترين، ص٢٩.

(٢) الصواعق المرسلة على الجهمية والمعطلة، أبو عبد الله محمد بن أبي بكر أيوب الزرعي ابن القيم، ٩٢٧/٣.

المطلب الخامس: نشأة المذهب الأشعري

ظلت عقائد المعتزلة ونظرياتهم تشغل العقول وتسيطر على الأذهان، وتستقطب حولها الشباب المثقف الذكي، في حين أعرض المحدثون بعد الإمام أحمد بن حنبل–رحمه الله– ومن كان على شاكلتهم من العلماء عن العلوم العقلية وأساليب البحث والاستدلال الجديدة التي شاعت بتأثير المعتزلة.

ونتج عن ذلك تفوق المعتزلة في مجالس البحث والمناظرة.. وأُخذ الناس بسحر المعتزلة وفلسفتهم، وصار هؤلاء المتفلسفون يعبثون بتفسير القرآن وعقائد الإسلام، تتحكم فيها أهواءهم وعقولهم ووجد اتجاه جديد يقدس العقل ويحكمه في مسائل النبوة والإيمان بالغيب..

وقد عجز عن مقاومة هذا التيار المحدثون والحنابلة والزهاد والفقهاء.. وإذا أراد الله شيئا هيأ له الأسباب، فنشأ أبو الحسن علي بن إسماعيل الأشعري في حجر شيخ المعتزلة في عصره أبو علي الجبائي، وتلقى علومه وصار نائبه، وموضع ثقته، ولم يزل كذلك حتى تصدر المعتزلة، وأصبح يشار إليه بالبنان وظل على ذلك أربعين سنة يدافع عن الاعتزال.

ولكن أبا الحسن استطاع خلال هذه العقود الأربعة أن يكشف عورات المعتزلة، وظهرت له انحرافاتهم، الأمر الذي أقلقه، فاعتكف في بيته خمسة عشر يوما، ثم خرج بعدها إلى المسجد الجامع بالبصرة فارتقى كرسيا، ونادى بأعلى صوته: من عرفني فقد عرفني، ومن لم يعرفني فأنا فلان.. كنت أقول بخلق القرآن.. وأنا تائب مقلع معتقد للرد على المعتزلة، مخرج لفضائحهم ومعائبهم.

وهكذا تحول إلى مذهب أهل السنة، وأصبح المدافع عن عقيدتهم في حماسة وإيمان، مزود بالسلاح الذي يحمله المعتزلة.

وكان سر عظمة الأشعري أنه اتخذ طريقا وسطا، فلم يذهب إلى تمجيد العقل كما فعل المعتزلة ولم ير أن الدفاع عن الدين يستلزم إنكار العقل كما فعل غيرهم.

وقد أقام البراهين العقلية والكلامية على عقيدة أهل السنة، وناقش المعتزلة والمتفلسفة في عقائدهم عقيدة عقيدة، وذلك كله في لغة يفهمونها.

وقد نشأ في مدرسة أبي الحسن الأشعري الفكرية علماء فحول ومتكلمون كبار، خضع لعلمهم ونفوذهم العالم الإسلامي لفترة من الزمن، وبفضلهم انتقلت قيادة العالم الإسلامي الفكرية من المعتزلة إلى أهل السنة. منهم القاضي أبو بكر الباقلاني (٤٠٣هـ) والشيخ أبو إسحاق الإسفرائيني (٤١٨هـ) وأبو إسحاق الشيرازي (ت٤٧٦هـ) وإمام الحرمين أبو المعالي الجويني (٤٧٨هـ) وغيرهم.

ولقد انتشر المذهب الأشعري أيام وزارة نظام الملك، الذي كان أشعري العقيدة وزاد في انتشاره المدرسة النظامية ببغداد والمدرسة النظامية بنيسابور.

ولكن مدرسة الأشعري فقدت بعد ذلك نشاطها الفكري وحيويتها، فقد طغى التقليد على تلاميذها، ووقفوا على ما أنتجه أستاذهم، وعضوا عليه بالنواجذ. وأصبح علم الكلام علما متناقلا.

وشعر بعضهم بأن الزمان قد تطور، فأدخل مصطلحات الفلسفة وأسلوبها في الاستدلال في علم الكلام. ولم يحسن صنعا؛ لأن هذا الأسلوب الفلسفي لا يورث الإذعان في القلوب كما يفعل أسلوب القرآن الكريم.. فلم يحسنوا تمثيل مذهب أهل السنة. ولم ينالوا تقدير الأوساط الفلسفية كذلك، ذلك بأنهم استغلوا هذه المصطلحات ولم يهضموها[١].

(١) الإمام الغزالي حجة الإسلام ومجدد المائة الخامسة، صالح أحمد الشامي، دار القلم، دمشق، ط٢: ١٤٢٣هـ/٢٠٠٢م، ص٥٤-٥٥.

المبحث الثاني

كتاب الإبانة عن أصول الديانة

المطلب الأول: أبواب الإبانة

اشتمل كتاب الإبانة على الأبواب الآتية:

١-فصل في قول أهل الزيغ والبدع.

٢-فصل في إبانة قول أهل الحق والسنة.

٣-فصل في إثبات رؤية الله سبحانه بالأبصار في الآخرة.

٤-فصل في أن القرآن كلام الله تعالى غير مخلوق.

٥-ذكر الرواية في القرآن.

٦-الكلام على من توقف في القرآن وقال لا أقول إنه مخلوق ولا أنه غير مخلوق.

٧-ذكر الاستواء على العرش.

٨-الكلام في الوجه والعينين والبصر واليدين.

٩-الرد على الجهمية في نفيهم علم الله تعالى وقدرته وجميع صفاته.

١٠-الكلام في الإرادة والرد على المعتزلة في ذلك.

١١-الكلام في تقدير أعمال العباد والاستطاعة والتعديل والتجوير.

١٢-ذكر الروايات في القدر.

١٣-الكلام في الشفاعة والخروج من النار.

١٤-الكلام في الحوض .

١٥-الكلام في عذاب القبر.

١٦-الكلام في إمامة أبي بكر الصديق ﷺ.

المطلب الثاني: منهج الإمام الأشعري في الإبانة

إن القول الشائع بأن الأشعري صاحب موقف وسط بين السلف والمعتزلة هو قول غير صحيح من أساسه، إذ لو فهم حقيقة موقف كل منهما وأن كل منهما على طرف النقيض من الآخر تيقنا أنه لا يصح التوفيق بينهما بحيث ينتهي إلى موقف

وسط بينهما، لأن الاختلاف بين الوقفتين جذري، ويكمن في منطلق الوقفة نفسها، فمنطلق الوقفة الكلامية عند السلف: النقل، ومنطلق الوقفة الكلامية المعتزلية: العقل، فالمسألة عبارة عن علاقة (إما هذا أو ذاك) لا تسمح بطرف ثالث بينهما، ولا بد لتبين موقف الأشعري من الوقوف على حقيقة كل من الوقفتين[١]:

الوقفة الكلامية عند السلف الصالح تتلخص في:

١-إعطاء الصدارة للنص المنــزل، وتلقيه بدون أي أنسقة فكرية مسبقة تخرج النص عن حقيقته، وإنما ترك النص يكشف عن مضمونه من واقع الفهم اللغوي للألفاظ وبالاستعانة بالنصوص الأخرى المنــزلة، ومن هنا كانت وقفة السلف في مواجهة الفرق وأصحاب البدع من أجل التنبيه على التأويل الصحيح للنصوص المنــزلة والقضاء على التأويل الفاسد لها. والتأويل الصحيح يقتضى وضع النص المنــزل قرآنا أو سنة في المقدمة، وتبين معانيه طبقا لأصول التفسير الصحيحة، بالبدء بتفسير القرآن بالقرآن، وتفسيره بالسنة، ومراعاة أصول اللغة، والخصوص والعموم ومناسبات النــزول وغير ذلك من أصول التفسير.

٢- جواز إعمال الفكر والرد بما يؤدي إلى إفحام الخصم، وكشف أغاليطه.

٣- لا يعني السلف بذم الكلام: الدفاع عن العقائد إذا اقتضى الأمر ذلك بالحجج والبراهين النقلية والتفسير الصحيح لها، وإنما يعنون بالكلام المذموم الأغاليط وتأويل القرآن على غير وجهه. ولهذا صنَّف أئمة السلف في الدفاع عن العقيدة كالإمام أحمد والبخاري وغيرهما. بينما تقوم الوقفة المعتزلية على ذهنيات لا تنطلق من أي نص منــزل، بل من أنساق فكرية مسبقة.

وفى ضوء ما سبق يمكن البحث عن حقيقة وقفة الأشعري، والتي يظهر فيها بوضوح إعطاء الأولوية للأدلة النقلية، وذلك يتضح مثلا في جميع المسائل التي طرقها في الإبانة، حيث نرى فيهما أن النص المنــزل وما يؤدى إليه من معنى هو الذي له مكان الصدارة في كل ما يصدر عنه الأشعري، والمقصود بإعطاء الأولوية

(١) مقدمة تحقيق الإبانة في أصول الديانة، فوقية حسين، ص ٩٣، وقد تناولت كل من الوقفتين: وقفة السلف ووقفة المعتزلة بالتفصيل ص٩٣ وما بعدها.

للنص ليس مجرد تقديمه في العرض، ولكن إعطاء النص قياد الفكرة، وليس لمجرد توكيد فكرة مسبقة كما يفعله الجهمية والمعتزلة وغيرهم من الفرق(١).

يعتبر منهاج الأشعري الكلامي نقطة تحول في علم الكلام، حيث استبدل الجدل الخطابي الذي اتبعه المعتزلة، بنوع آخر من الجدل العلمي المنظم، مما أدى إلى تحول جذري –من الناحية النظرية والمنهجية– في الدراسات الكلامية الإسلامية، ومع تميز الأشعري بموهبة جدلية فائقة مثله مثل المعتزلة الأوائل، فقد أضاف إلى ذلك طريقة فنية لم يعرفها هؤلاء، ويظهر فيها أثر المنهج الأرسطي واضحا، حيث أصبح القياس لدى الأشعري هو الصيغة المألوفة في البرهنة(٢).

وهنا يمكن التفصيل في المنهاج الذي سار عليه الإمام الأشعري في كتابه الإبانة:

يناقش الأشعري في الإبانة آراء خصومه من المعتزلة بالكثير من النظام والوضوح، وهو يعرضها أولا باختصار، ثم يعرج بعد ذلك إلى دحضها، ويستعرض كل وجوه المسألة الواحدة، مقدما حول كل نقطة البراهين المضادة، وينتهي بالاختيار بين الإيجاب والنفي، إما حسب النص، أو تبعا لتفرقة جديدة، ويحاول عن طريق التقسيم والتصنيف أن يقيم شكلا من القياس، وقد أتاحت له صيغة (فإن قال... قلت) أن يستقصي كل الفروض الممكنة حول المشكلة التي يتناولها، كما أنه يتبنى طريقة (تعدد الأدلة)، فمثلا عندما يستدل على إمكانية رؤية الله تعالى في الدار الآخرة يسوق حوالي عشرة أدلة، كما يدحض الأشعري الجدلي الحاذق خصومهم بأدلتهم نفسها، وهو ما يسمى بـــ (الإلزام)، وإلى جانب هذا يبرع في تحليل الألفاظ، ويتبع نفس المنهج الذي طبقه أرسطو في دراساته عن المترادفات والجناس(٣).

---

(١) مقدمة تحقيق الإبانة في أصول الديانة، فوقية حسين، ص ١١١ وما بعدها.

(٢) المنهج الأرسطي والعلوم الكلامية والفقهية في الإسلام، إبراهيم مدكور، الترجمة عن الفرنسية: حامد طاهر، ضمن كتابه: منهج البحث بين التنظير والتطبيق، ص ٣١٨.

(٣) المنهج الأرسطي والعلوم الكلامية والفقهية في الإسلام، إبراهيم مدكور، ص ٣١٩.

كما يعتمد على الأدلة النقلية وطريقة القرآن الكريم في صياغة بعض وجوه الاستدلال العقلي من الدليل النقلي، بحيث يكون الدليل النقلي هو المرجعية والخلفية الأساسية الحاكمة للدليل العقلي، وإن جاء التصريح بالدليل النقلي تاليا – كما هي عادة الأشعري دائما– للبرهان العقلي. وأعتقد أن هذا هو لب مذهب الأشعري وموقفه الكلامي، وهنا يفترق الموقف الكلامي الأشعري عن الموقف الفلسفي، حيث نجد بعض البراهين العقلية تعتمد على مفاهيم دينية مما يجعل هذه البراهين نقلية في أصلها، وإن كانت عقلية في شكلها(١).

لقد سلك الإمام الأشعري في الإبانة مسلك أهل السنة والجماعة، باعتماده على القرآن الكريم مصدرا أولا والسنة النبوية مصدرا ثانيا في تقرير مسائل العقيدة. فمنهما يستقي الحجج وبهما يرد على الخصوم وينقض شبههم.

كما اعتمد على آثار الصحابة والتابعين وفهم السلف أئمة الحديث للوحيين القرآن والسنة، كالإمام أحمد وابن المبارك –رحمهما الله– وغيرهما، وعلى ما أجمعوا مصدرا ثالثا في إثبات الصفات ونفي التعطيل، ويتضح هذا جليا في قوله: "فإن كثيرًا من الزائغين عن الحق من المعتزلة وأهل القدر مالت به أهواؤهم إلى تقليد رؤسائهم، ومن مضى من أسلافهم، فتأولوا القرآن تأويلاً لم ينزل الله به من سلطان، ولا أوضح به برهانًا، ولا نقلوه عن رسول رب العالمين، ولا عن السلف المتقدمين"(٢).

وفي قوله: "قولنا الذي نقول به وديانتنا التي ندين بها التمسك بكتاب الله ربنا ﷻ وبسنة نبينا محمد ﷺ وما روي عن السادة الصحابة والتابعين وأئمة الحديث، ونحن بذلك معتصمون، وبما كان يقول به أبو عبد الله أحمد بن حنبل قائلون، ولمن خالف قوله مجانبون؛ لأنه الإمام الفاضل والرئيس الكامل الذي أبان الله به الحق، ودفع به الضلال، وأوضح به المنهاج، وقمع به المبتدعين وزيغ الزائغين وشك الشاكين"(٣).

---

(١) مقدمة تحقيق الإبانة في أصول الديانة، ص٧٧.

(٢) الإبانة عن أصول الديانة، بتحقيق: فوقية حسين محمود، ص١٤.

(٣) الإبانة، ص٢٠.

ومن ثم فإن الإمام الأشعري ذهب إلى تبني كثير من مواقف الإمام أحمد بن حنبل والأمثلة التي جاء بها من القرآن والسنة لبيان حجته، لكنه أدخل مصطلحات جديدة في المحجاج اللفظي والعقلي أثرت طريقة الإمام ابن حنبل، ووضعتها في إطار علمي منظم يستجيب لحاجات ذلك العصر.

ومن فرائد منهاجه في كتابه ودقته وتحريه للنقل أنه لما تجده ينقل إجماعا في مسألة ولم يصح، أو وجد له مخالف من أهل السنة.

كما استخدم في كتابه منهج الاستدلال العقلي الذي لا يتعارض مع الوحيين، بل يكون مؤيدا لهما عند جداله ومناقشته للخصم، ولقد برزت قدرته على استخدام الدليل العقلي في الاستدلال بقوة واضحة، وقد يكون ذلك عائدا لمعرفته المسبقة بمنهج المعتزلة، وسبره لأغوارهم.

كما كان منهجه في الإبانة قائما على إيراد مسائل الاعتقاد، حيث أورد فيها مسألة رؤية الله تعالى بالأبصار في الآخرة. وهي من أهم المسائل التي خالف فيها المعتزلة والجهمية الحق. وتطرق لمسألة أن القرآن الكريم كلام الله غير مخلوق، وأطال فيها النفس، لأنها من أهم مسائل العقيدة التي خالف فيها أهل الأهواء، والتي امتحن بسببها الإمام أحمد بن حنبل رحمه الله، فأجاد في المسألة، وحشد العشرات من الأدلة للرد على خصومه ونقض آرائهم فيها، كما تطرق لعلو الله على خلقه واستوائه على عرشه، ورد بحجج عقلية ونقلية على الذين فسروا الاستواء بالاستيلاء، كما رد في هذا الباب على المعتزلة والجهمية، ومن سلك مسلكهم، وأثبت في هذا الباب مسألة النزول الإلهي إلى السماء الدنيا كما أثبت في هذا الباب الصفات الخبرية كالوجه والعينين واليدين والسمع والبصر، ولم يخرج في هذا على هدي القرآن والسنة وفهم سلف الأمة، وكان منهجه العقلي في هذا الباب ظاهرا، كما أثبت صفة القدرة والإرادة، كما تطرق إلى خلق الله لأفعال العباد ورد على المخالفين في ذلك، وذكر العديد من الروايات الثابتة في القدر، وتطرق لمسألة الشفاعة وخروج العصاة وأهل الكبائر من النار، ورد حجج أهل الأهواء الذي خلدوهم في النار، كالخوارج والمعتزلة، وتطرق لمسألة إثبات عذاب القبر وإثبات الحوض، واختتم كتابه عن إمامة خليفة رسول الله ﷺ أبي بكر الصديق ﷺ وبقية

الخلفاء الراشدين ﷺ مبينا أفضليتهم على الترتيب، وأثنى على العشرة المبشرين بالجنة، وعلى بقية الصحابة مترضيا عليهم جميعا متبعا لمنهج السلف الصالح في هذه المسألة ومخالفا لمناهج أهل الأهواء والبدع، الذين طعنوا في أصحاب رسول الله ﷺ، كالخوارج والروافض ومن سلك مسلكهم الضال.

والناظر في كتابه يرى دقة الاحتجاج العلمي الذي سلكه الإمام الأشعري في مسائل الصفات، وما ترتب عليها من نظر في مسألة الرؤية، وخلق القرآن، وبقية المسائل. وفي كل ذلك يبين وجه الدليل بصورة علمية ربط فيها بين الميتافيزيقيا الإسلامية الصحيحة في شأن العقائد الإيمانية، وبين أصول الأخلاق المتصلة بمسائل تلك العقائد الإيمانية. ولم يغرق في التفاصيل الكلامية.

إن الإمام أبا الحسن الأشعري قد ابتكر علماً جديداً صاغه من مادة علم الكلام المعتزلي، وطريقة عبد الله بن كلاب، وتقريرات الإمام أحمد بن حنبل، وطريقة احتجاجه في مسائل خلق القرآن والرؤية وعلم الله وبقية الصفات التي بيّن معالم النظر الصحيح فيها.

فهذه الصياغة الجديدة للمنهاج والمحتوى تعتبر نقلة نوعية فريدة، وصلت به إلى نسق علمي يعبر عن أصول الدين في الإسلام، وفي كتابه الإبانة تبدو فيه هذه المعالم واضحة، وهي طريقة مبتكرة في التأليف في هذا المجال.

وملاك الأمر، إن الإمام الأشعري أسس مدرسة علمية رائدة في التعبير عن أصول الدين، ومن ثم فإن طريقته لم تندثر؛ وإنما وجدت لها امتدادات علمية في مؤلفات الأجيال اللاحقة، عند الباقلاني والسمعانى وإمام الحرمين الجويني والغزالي والإسفراييني وغيرهم...

فقد اشتمل كتابه على أهم المسائل العقدية التي يحتاج إليها الناس في كل زمان ومكان، ورد زيغ أهل الباطل الذين كانوا من حوله يبثون تلك الآراء، وينافحون عنها.

لقد وافق منهجه خطته وهدفه الذي يممه من توليفه، حيث وافق العنوان المضمون، وأبان منهاج السلف الصالح الذي سلكه في هذا الكتاب.

المطلب الثالث: مصادره في الإبانة

إن الملاحظة التي يمكن تسجيلها على كتاب الإبانة قلة المصادر التي يستقي منها؛ ذلك بأن مصنفه هذا يؤسس لمنهاج عقدي يناقش خلاله المعتزلة والجهمية أصحاب المذهب العقلي، فحرص على مقارعة الحجة بالحجة، ومواجهتهم بسلاحهم، إضافة إلى تميزه عنهم بسلامة منهجه الاستدلالي العقلي النقلي.

ويمكن إجمال مصادره في كتابه فيما يأتي:

القرآن الكريم: اعتمد على الكثير من الآيات القرآنية، في الاستدلال ونقض عقائد الخصوم.

الحديث النبوي الشريف: أورد الكثير من الأحاديث الشريفة من الموطأ ومصنف ابن أبي شيبة وغيرهما.

كتب التفسير: نقلا قولا من تفسير سنيد أبو علي بن داود المصِّيصي.

دواوين الشعر: نقل بيتا من ديوان امرؤ القيس، وبيتا من ديوان الخنساء.

العقل: حيث يتضح الاستدلال العقلي جليا في مصنفه عند نقضه للآراء الباطلة.

وقد قام الإمام أبو بكر الباقلاني بشرح كتاب الإبانة، لكن لم يصلنا لحد الآن.

المطلب الرابع: عقيدة أبو الحسن الأشعري من خلال كتاب الإبانة

يقول الشيخ ابن درباس رحمه الله:"إن كتاب الإبانة عن أصول الديانة الذي ألفه الإمام أبو الحسن علي بن إسماعيل الأشعري –رحمه الله– هو الذي استقر عليه أمره فيما كان يعتقده وبما كان يدين الله سبحانه وتعالى بعد رجوعه من الاعتزال بمنّ الله ولطفه، وكل مقالة تنسب إليه الآن مما يخالف ما فيه فقد رجع عنها وتبرأ إلى الله سبحانه منها، كيف وقد نص فيه على أنه ديانته التي يدين الله سبحانه بها، وروي وأثبتت ديانة الصحابة والتابعين وأئمة الحديث الماضين وقول أحمد بن حنبل رضي الله عنهم أجمعين، وأنه ما دلّ عليه كتاب الله وسنّة رسوله فهل يسوغ أن يقال: إنه رجع عنه إلى غيره؟ فإلى ماذا رجع إلى كتاب الله وسنّة نبي الله وخلاف ما كان عليه الصحابة والتابعون وأئمة الحديث المرضيون، وقد علم أنه مذهبهم ورواه عنهم، هذا الذي لعمري ما لا يليق نسبته إلى عوام المسلمين كيف بأئمة

الدين؟ أو هل يقال: إنه جهل الأمر فيما نقله عن السلف الماضين مع إفنائه جل عمره في استقراء المذاهب وتعرف الديانات؟ وهذا ما لا يتوهمه منصف ولا يزعمه إلا مكابر بسرف ويكفيه معرفته بنفسه أنه على غير شيء.

وقد ذكر الكتاب واعتمد عليه وأثبته عن الإمام أبي الحسن رحمه الله عليه وأثنى عليه بما ذكره فيه وبرأه من كل بدعة نسبت إليه، ونقل منه إلى تصنيفه جماعة من الأئمة الأعلام من فقهاء الإسلام وأئمة القراء وحفاظ الحديث وغيرهم.

فتأملوا رحمكم الله هذا الاعتقاد ما أوضحه وأبينه، واعترفوا بفضل هذا الإمام العالم الذي شرحه وبيّنه، وانظروا سهولة لفظه فما أفصحه وأحسنه، وكونوا ممن قال الله فيهم: ﴿الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ﴾، وبينوا فضل أبي الحسن، واعرفوا إنصافه، واسمعوا وصفه لأحمد بالفضل واعترافه، لتعلموا أنهما كانا في الاعتقاد متفقين، وفي أصول الدين ومذهب السنة غير مفترقين، ولم تزل الحنابلة في بغداد في قديم الدهر على ممر الأوقات، تعتضد بالأشعرية على أصحاب البدع؛ لأنهم المتكلمون من أهل الإثبات، فمن تكلم منهم في الرد على مبتدع فبلسان الأشعرية يتكلم، ومن حقق منهم في الأصول في مسألة فمنهم يتعلم، فلم يزالوا كذلك حتى حدث الاختلاف ووقع بينهم الانحراف من بعضهم عن بعض لانحلال النظام، وعلى الجملة فلم يزل في الحنابلة طائفة تغلو في السنة وتدخل فيما لا يعنيها حبا للخوض في الفتنة ولا عار على أحمد -رحمه الله- من صنيعهم وليس يتفق على ذلك رأي جميعهم"(١).

ويقول الإمام الذهبي في عقيدة الأشعري:"فلو انتهى أصحابنا المتكلمون إلى مقالة أبي الحسن هذه ولزموها لأحسنوا"(٢).

---

(١) رسالةٌ في الذبِّ عن الأشعري، أبو إسحاق إبراهيم بن عثمان بن عيسى بن درباس، تحقيق: حمدي بن عبد المجيد السلفي، سلسلة بحوث وتحقيقات مختارة من مجلة الحكمة(٣٣). بيان كذب المفتري، ص١٦٣.

(٢) العلو للعلي الغفار، أبو عبد الله محمد بن أحمد الذهبي، ص٢٢.

وهنا يمكن القول أن العديد من الدراسات التي تناولت الأشعري سيرة ومذهبا قد أسقطت من حسبانها قيمة إبراز العناصر الإسلامية التي تدخلت في تكوينه، ونشأته الأولى، وغضت النظر عن بعض الحقائق الإيمانية عند تحوله عن الاعتزال، كما أغفلت حقيقة منهاجه الكلامي وما يمكن أن يكون قد نسب إليه من رسائل بعد تحوله عن الاعتزال، الأمر الذي كان له أثره في تبين الأبعاد الحقيقية لمذهبه، خاصة وأنه حدث أن ألقيت الأضواء أولا على ثقافته المعتزلية، الأمر الذي جعل الدارسين يعتبرونه صاحب موقف وسط بين الاعتزال والسنة(١).

إن الملاحظة الأساسية في منهاج التصنيف الكلامي عند الأشعري أنه "نصر السنة بحجج العقول"، وأنه – على ما يذكر ابن عساكر– بخصوص الصفات الإلهية لم يعطل ولم يشبه، وابتغى بين ذلك قواما، وأثبت لله تعالى – كما هو مذهب السلف– ما أثبته سبحانه لنفسه من الأسماء والصفات، ونفى عنه ما لا يليق بجلاله من شبه خلقه(٢)، "فلم يحدث في دين الله حدثا، ولم يأت فيه ببدعة، بل أخذ أقاويل الصحابة والتابعين ومن بعدهم من الأئمة في أصول الدين فنصرها بزيادة شرح وتبيين وأن ما قالوا في الأصول وجاء به الشرع صحيح في العقول(٣).

وهذا هو منهاج أهل السنة "فالأدلة العقلية الصريحة توافق ما جاءت به الرسل، وأن صريح المعقول لا يناقض صحيح المنقول، وإنما يقع التناقض بين ما يدخل في السمع وليس منه، وما يدخل في العقل وليس منه"(٤)، وقد أعمل الصحابة ﷺ هذا الأصل، وتلقاه عنهم التابعون، وتواترت عبارات أهل العلم بهذا المعنى.

أما عقيدته في معاملة خصومه فيقول فيها: "اشهد علي أني لا أكفر أحدا من أهل هذه القبلة لأن الكل يشيرون إلى معبود واحد، وإنما هذا كله اختلاف العبارات"، هكذا قال الشيخ أبى الحسن لتلميذه وصاحبه أبى علي السرخسي لما قرب حضور

(١)مقدمة تحقيق الإبانة في أصول الديانة، فوقية حسين، ص٧.

(٢) تبيين كذب المفترى، ابن عساكر، ص٢٦.

(٣) تبيين كذب المفترى، ص ١٠٣.

(٤) درء تعارض النقل والعقل، أبو العباس أحمد ابن تيمية، ٢٣١/١.

أجله، فيما أسنده عنه ابن عساكر[١]، مما يؤكد قاعدة أساسية في منهاجه الكلامي وهو عدم تكفير أحد من أهل القبلة، وأن تناول المقالات الكلامية بالنقد مهما أفضى بنا من نتائج إلى كون هذا القول أو ذلك كفر، فلا ينبغي أن يتجاوز بنا إلى تكفير القائلين بأعيانهم وأشخاصهم، والأشعري في ذلك متفق مع القاعدة المستقرة عند أهل السنة في قضية التكفير. فقد روى الإمام القاسم بن سلام عن أنس بن مالك ﷺ قوله النبي ﷺ: «ثلاث من أصل الإسلام: الكف عمن قال: لا إله إلا الله، لا نكفره بذنب، ولا نخرجه من الإسلام بعمل...» [٢]، وروى بإسناد صحيح أن أبا سفيان قال: «جاورت مع جابر بن عبد الله ستة أشهر، فسأله رجل: هل كنتم تسمون أحدا من أهل القبلة كافرا؟ فقال: معاذ الله! قال: فهل تسمونه مشركا؟ قال: لا»[٣].

وفي الختام:

هذه لمع من سيرة الإمام أبي الحسن الأشعري وشذرات من مذهبه العقدي الوسطي الذي كان له الفضل في تحقيق الأمن الفكري والعقدي وتحصين عقول أجيال المسلمين واعتقادهم، فرحمه الله رحمة واسعة.

(١) تبيين كذب المفترى، ص ١٤٩.

(٢) كتاب الإيمان، بتحقيق: ناصر الدين الألباني، ص٩٤. وانظر الحديث كذلك في سنن أبي داود: ح٢٥٣٢.

(٣) كتاب الإيمان، ٥ ص٩٥.